



الاستفهام عند الحارث المحاسبي

في تفسيره للقرآن الكريم

م.م مهدي شكور محمد - كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين
مُحَمَّد بن عبد الله الصّادق الأمين وعلى آله الطيبين وصحبه المنتجبين 0
وبعد ...

فهذا البحث (الاستفهام عند الحارث المحاسبي في تفسيره للقرآن الكريم) ، ودراستي
هذه نابعة من إيماني بأهمية الموضوع ، من عدّة جوانب ، أهمها ، عدم وجود دراسة مستقلة
عن الاستفهام عند الحارث المحاسبي في تفسيره للقرآن الكريم ، والتعبير بأسلوب الاستفهام
يأتي حياً موحياً يدخل القلوب ، ويعطي الكلام حيوية وقدرة على استيعاب المعاني ، ويحقق
مدلولها .

واتبعت في البحث على ذكر لقبه فقط ، اختصاراً ، واقتصر على ذكر سنة وفاته
، لشهرته ، وجاء البحث بتمهيد ودراسة للمعاني والأغراض التي استعملها المحاسبي في التعبير
بالاستفهام . وتناولت في التمهيد ، الاستفهام لغةً واصطلاحاً ، والاستفهام عند
المحاسبي ، وأمّا المعاني والأغراض ، فقد تضمنت دراسة (الإرشاد والنصح ، والتنبيه ، والتّمني
، واللوم ، والتقريب ، والتّفي ، والتعجّب ، والنّفي مع التعجّب ، والإنكار التوبيخي
والاحتقار ، والتهويل ، والتشويق) ، ثم خاتمة البحث ، التي ضمّت أهم النتائج التي
توصّلت إليها ، ثم ألحقها بقائمة الهوامش وثبتت بالمصادر والمراجع والدوريات .

أمّا مصادر البحث ومراجعته ، فقد درست واستفدت من مصادر ومراجع عديدة
أهمها ، كتب للمحاسبي ، منها (آداب النفوس ويليّه التوهّم ، والرعاية لحقوق الله
والعقل وفهم القرآن ، ...) .

وأولاً وآخرأً أحمدُ الله العليّ القدير على تمكّني من إتمام هذا البحث ، وصلى الله
على سيّدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلّم .



التمهيد

الاستفهام لغةً⁽¹⁾ : وهو ، من : ((فَهَمْتُ الشَّيْءَ : أَي عَقَلْتُهُ وَعَرَفْتُهُ)) ، وهو عِلْمُ الشَّيْءِ ،⁽²⁾ و ((فَهَمَهُ فَهَمًا وَفَهَمًا وَفَهَامَةً : عَلِمَهُ))⁽³⁾ ، ((وَاسْتَفْهَمَهُ : سَأَلَهُ أَنْ يُفْهَمَهُ))⁽⁴⁾ ، أو يُخْبِرُهُ عَنْهُ⁽⁵⁾ ، ((وَالِاسْتِفْهَامُ لَا يَكُونُ إِلَّا لَمَّا يَجْهَلُهُ الْمُسْتَفْهَمُ ، أَوْ يَشْكُ فِيهِ))⁽⁶⁾

الاستفهام في الاصطلاح : وهو : ((طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل)) ، وأدواته⁽⁷⁾ الموضوع له ، الهمزة ، وهل ، وما ، ومن ، وأي ، وكم ، وكيف ، وأين ، وأتى ، ومتى وأيان .⁽⁸⁾

الاستفهام عند المحاسبي : إنَّ أسلوب الاستفهام والذي يعدّ من أغزر قوالب المعنى وألطفها يُستعمل للمعنى الموضوع له حيناً ، ولغيره حيناً آخر ، وهو يحظى بخصائص موضوعية ، كما يتمتع بخصائص دلالية وأسلوبية ، وإيجاءاتها ثرة متنوعة ، تتنوع بتنوع أدواتها وسياقاتها . وقد تفنن المحاسبي في التعبير بالاستفهام في تفسيره للقرآن الكريم ، ووجدنا أنها كثيراً ما خرجت عن المعاني الأصلية ، إلى أغراض بلاغية أخرى جديدة بدراسة علمية ، قامت بتفصيلها هذه الدراسة .

أولاً / الإرشاد والنصح :

عبر المحاسبي (ت 243 هـ) بالاستفهام ، عن معان مجازية ، تخرج إليها ، منها الإرشاد⁽⁹⁾ والنصح ، مستعملاً أداة العرض (ألا)⁽¹⁰⁾ ، مع فعل الأمر ، بهدف تحقيق التوعية للمريدين ، ممّا ظهر ، في قوله : ((يجيء يوم القيامة قوم يطلبون صفات لهم عملوها ، فيقال لهم : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدَّبْتُمُ طَبِيبَتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْرَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِذَا كُنْتُمْ أَنْفُسُكُمْ ﴿11﴾ ألا فكونوا مقتصدين في أحوالكم من غير إقتار إسراف))⁽¹²⁾ ، ومثله أيضاً ، قوله : ((ألا فراقبوا الله إخواني ...)) ، التعبير بـ (ألا) ، و (فكونوا) ولا (فراقبوا)⁽¹³⁾ ، دلالة على حرص المحاسبي في استجابة المريدين ، قبول النصيحة ، بدوام طاعته سبحانه وتعالى في السر والعلانية⁽¹⁴⁾

ثانياً / التنبيه :

واستعمل المحاسبي الأداة (ألا) ، والفعل المضارع (ترى) ؛ لأداء معنى التنبيه ، ((وهو من أقسام الأمر))⁽¹⁵⁾ ، ممّا نقرؤه ، في تفسيره ، بقوله : ((ألا ترى أنّ الله وعدك أن يرزقك وغيب رزقك عنك بالقضاء ، وله وقت ينزل فيه ؟ فلوا احتكّت بكل حيلة أن يأتيك قبل وقته لم تقدر على ذلك ، حتى ينزل في وقته⁽¹⁶⁾ . أما سمعت الله عزّ وجلّ يقول : ﴿ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٣١﴾ قُرْبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾⁽¹⁷⁾ نلاحظ أنّ المحاسبي ، استعمل حرف التنبيه (ألا) ؛ لقصد العناية بالكلام⁽¹⁸⁾ ، واستعمل أيضاً ، الأداة (أما) ؛ ليؤكد أنّ الرزق من الله سبحانه وتعالى أمرٌ محقق الوقوع والحصول قطعاً .⁽¹⁹⁾ واستعمل المحاسبي ، (الواو) العاطفة والصيغة عينها وبصورة الغائب ؛ لتعظيم شأن الله تعالى ، في قوله : ((أولاً تراه يقول عزّ وجلّ : ﴿ وَأَمَّا نُمُودٌ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمُ صَبَعَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾⁽²⁰⁾ ، يعني بيّننا لهم ما⁽²¹⁾ . فإنما خاطب الله العباد من قبّل ألباهم ، واحتجّ عليهم بما ركب فيهم من عقولهم)) ، والمعنى انظر، وتدبر آياته سبحانه وتعالى .⁽²²⁾

وعبر المحاسبي بالأداة نفسها ، والفعل المضارع (تسمعه) ، في نفس المعنى ، ممّا ظهر

في تفسيره ، بقوله : ((ألا تسمعه يقول : ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ (23)

لا يعني أنهم كانوا صمماً ولكن لا يفقهون ما يسمعون بأذانهم . ألا تسمعه يقول : ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (24) ، فأثبت النظر (25) .

يقول : لا يعقلون دلائل الله عزَّ وجلَّ في نبوته عليه السلام ((، أشار المحاسبي ، إلى حضور (26) القلب عند الإصغاء والاستماع للقرآن الكريم ، وإدراك فهمه ، والتدبر والتفكير ، للقيام بطاعته وعبادته سبحانه وتعالى ، وقد وردت هذه الصيغة كذلك في كتاب آخر له . (27)

ثالثاً / التمني :

واستعمل المحاسبي أداة العرض (أولاً) ، لتضمينها معنى التمني نصاً ، وذلك مما نقرؤه في تفسيره (28) ، بقوله : ((.. فَإِنَّ فِي هَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْنَا تَبْيَاناً كُلِّ شَيْءٍ ، وَعِلْمَ كُلِّ شَيْءٍ . فَعَلَيْكَ بِتَدْبِيرِهِ ، وَتَأَمُّلِهِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَأَعْمَلْ نَفْسَكَ فِي فَهْمِهِ ، وَالْعَمَلُ بِهِ ، أَوْلَا تَسْتَمِعُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (29) (أولاً) في هذا النص أفادت معنى (ليتك) . ومنه أيضاً ، قوله : ((فلا ترغب عن الله بجهلك ، فتحضع لمن دونه عند تخويف الشيطان ، فيستولي

عليك عند ذلك أولاً تستمع إلى قوله (30) : ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ

وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (31) ، فما يضرك من مواعيد الشيطان

مع ضمان الرحمن ؟ (((32) ، نلاحظ أنَّ المحاسبي ، (33) (استعمل (لا) الناهية مع الفعل

المضارع ، وحقَّق الموازنة ، (34) في (ترغب ، وتحضع) والطباق ، بين اسمين ، في (الشيطان

، والرحمن) ، مما أعطى قوة للمعنى ، وعمقاً له . (35)

رابعاً / اللوم :

واستعمل المحاسبي الأداة (أما) ، وهي مثل (ألا) ، في دلالتها ، والفعل الماضي (سمعته) لتأدية معنى اللوم ، ما نقرؤه ، في تفسيره ، بقوله : ((فمن سكن قلبه إلى أنه ليس نعمة في السماء والأرض إلاّ وهي لله ، استراح قلبه من عذاب الحرص ⁽³⁶⁾ . أما سمعته يقول ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴾ ⁽³⁷⁾ .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُعْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومَ مَسْحَرَاتٍ بِأَمْرِ رَبِّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُخْفَىٰ عَلَيْهِ الْعَالَمِينَ ﴾ ⁽³⁸⁾ فإذا ألزمت الثقة قلبك ، فإنما أنت ناظر إلى الله ، لأنّ الملك لله دون خلقه ، وبقدر تركك الثقة ⁽³⁹⁾ يعظم حرصك على الدنيا...)) ، عبّر المحاسبي بصيغة الماضي ، والتي أفادت التحقيق والثبوت ، وكذلك استعماله أداة الشرط (من) ، مع فعل الشرط الماضي سكن (وجوابه) استراح (الفعل الماضي أيضاً ، للدلالة على القطع وتحقق وقوع اطمئنان القلب بذكر الله سبحانه ، الماضي يحمل في بنية الشرط القطع والتثبيت ، ⁽⁴⁰⁾ وقد وردت هذه الصيغة كثيراً في كتب المحاسبي فالفعل ⁽⁴¹⁾ .

خامساً / التقرير :

وأدى المحاسبي بالاستفهام ، معنى التقرير ، والهمزة ، هي الأداة الخاصة بذلك ، ⁽⁴²⁾ ويؤدّيها مع أداة نفي الماضي (لم) ، ممّا ظهر ، في تفسيره ، بقوله : ((ألم تسمعه عزّ وجلّ يقول : ⁽⁴⁴⁾ ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أذُنٌ وَعَيْبَةٌ ﴾ ⁽⁴⁵⁾ .

. قال : أذُنٌ عَقَلْتُ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى . يعني عقل عن الله ما سمعت أذناه ، ⁽⁴⁶⁾ ممّا قال (وأخبر)) ، ومعناه ، الكف عن معاصي الله سبحانه ، والحرص على طاعته تعالى ⁽⁴⁷⁾ وأدّت (الهمزة) ، وظيفة حمل المخاطب على أن يقرّ بأمرٍ يعرفه ، و((إلزام المخاطب بالحجة ، وانتزاع الاعتراف منه بما يريد المتكلم)) ⁽⁴⁸⁾ .

ومنه كذلك ، قوله : ((وجميع الممتحنين المأمورين من العقلاء البالغين كلهم لهم عقول يميّزون بها أمور الدنيا كلّها ، الجليل ، والدقيق ، وأكثرهم للآخرة لا يعقلون ، ألم تسمعه عزّ وجلّ يقول : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (49)) ، تفسير المحاسبي ، إشارة فيه ، إلى الانقياد والإذعان لله عزّ وجلّ ، وردت الهمزة ، مع نفي الفعل المضارع ، ((والمراد حصول ضده المخاطب على الاهتمام بتحصيله)) (50) ، أداة النفي (لم) ، أدّت في الصيغتين السابقتين ، مجرد تأكيد معنى الإثبات ، وقد وردت هذه الصيغة كذلك في كتبه . (51)

بحث واستعمل المحاسبي أيضاً ، الأداة (ليس) ، والتي تفيد نفي الحال والاستقبال ، وهي مثل (لم) ، في إفادتها التقرير ، إذا سُبقت بالهمزة ، في قوله (52) : ((فَإِنْ قُلْتَ : إني نسيْتُ النِّبْيَةَ ، وسهوت عنها ، فهذا إقرار ، وليس لك حجة ، وإنما أنساك النِّبْيَةَ الدنيا ، وإرادتك الغالبة لها . (53) أوليس بلية آدم كانت من النسيان وقلة العزم ؟ أولاً تسمع إلى قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا آلَ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَوَعَدَهُ عَزْمًا ﴿١٥﴾ ﴾ (54) ، ظهر في تفسيره ، (الهمزة) ، مرتين ، أفادت التقرير ، الأولى والتوكيد في الثانية ، وتكرار الهمزة دلالة على التألم والبث والشكوى ، ((تكرار وسيلة أسلوبية إمّا للتأكيد ، وإمّا للتذكير وهو إمّا أن يكون بتكرار اللفظ كما هو ، أو مع تعديل في المطلع طفيف ، أو يكون إشارة إلى المطلع ، أو وصفاً له)) . (55)

سادساً / التّفي :

واستعمل المحاسبي الاستفهام ؛ لتأدية معنى النفي ، ممّا ظهر ، في تفسيره ، بقوله : ((ولهم جعلَ المخرج من كل ما ضاق على العباد ، ولهم ضمن الرزق من غير الوجوه التي فقال تبارك وتعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (56) ترى فيها موضعاً لغير متق ؟ !)) ، فالمعنى المراد ، لا ترى فيها موضعاً إلاّ لمتقٍ . (57) فهل يجتسبونها ، ومنه أيضاً ، قوله : ((فمن نجا من النار فما له منزلة غير الجنة ، ألم تسمع إلى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لِأَرْبَابٍ فِيهِ فِرْقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفِرْقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ (58)

فهل ترى لأحدٍ منزلة بينهما ؟ ومن أراد الدخول في عزّ المحبّة فعليه بمفارقة الأحباب والخلوة
بربّ الأرباب)) (59) ، أي لا ترى لأحدٍ منزلة إلاّ فيهما ، وقد ظهر السجع الموازي
استعماله الألفاظ (الأحباب ، والأرباب) (60) ، فضلاً عن ، تكرار تركيب الشرط الذي
شكل لاقية بين الألفاظ ومعانيها وبين الأصوات ودلالاتها (61).

سابعاً / التعجب :

واستعمل المحاسبي الاستفهام في معنى التعجب ، نحو قوله : ((قال الله عزّ وجلّ : ﴿
ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ
رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَاتٍ آتَدْعُوهَا مَا كَتَبْنَا عَلَيْهَا إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا
فَعَاتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (62)

. فذمّمهم الله تعالى بترك رعاية ما لم يفترض ، ولم يوجب عليهم !! فكيف بمن ضيّع رعاية
حقوقه الواجبة ، التي أوجب في تضييعها غضبه وعقابه ، ...)) ، التعجب هنا ممّن غفل
عن القيام بجميع أوامره ونهيه سبحانه ، ونلاحظ أيضاً ، جناس الاشتقاق ، في قوله (يوجب
والواجبة ، وأوجب) (63) ، ترجع لمادة واحدة في الاشتقاق ، ممّا حقّق تناغماً في الأصوات
وتغائراً في الدلالة ، ويظهر جمال الإيقاع ورشاقة الصياغة . (64)

ومنه كذلك ، ((... وقوله تعالى : ﴿فِيمَا رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ
لَأَنْفَضُوهُم مِّنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (65) والمشورة من الحاجة لا من الغنى . أمر الله نبيّه (ﷺ) أن يستعين بمن
ليس هو مثله ، وأن تبقى سنّته سنّة لمن هو بعده . فكيف بمن هو مثلي ومثلك إذا سها
عن الله فيما لا يسعه إلاّ التضرع إليه ؟)) ، يتعجب المحاسبي من إدراك نفسه لما له وما
عليه وإحاطته به ، كيف يتولى عنه لغفلته ، وتضمّن النص تكرار الاسم الموصول (من)
ما أعطى الانسجام والتناسق الصوتي ، ف ((إذا تكرر الحرف في الكلام على أبعاد متقاربة
أكسب تكرار صوته ذلك الكلام إيقاعاً مبهجاً)) . (66)

ثامناً / النَّفي مع التعجّب :

وعبّر المحاسبي بالاستفهام ، عن تأدية معنى النفي مع التعجّب ، ممّا ظهر ، في تفسيره ، قائلاً : ((ألا من لم يقنع بما يكفيه ، كيف يأمن أن يكون ممّن قال الله فيه يقنع أن يحلّ به هذا الوعيد من الله فيهلك ؟ أعاذنا الله وإياكم من حب الشيطان ، وأنعم علينا ﴿أَهْلِكُمُ الشَّكَاوِرَ﴾ (67) ؟ وكيف يؤمن من لا وعليكم بالقناعة والتواضع)) (68) ، أي ، (لا يأمن ..) ، والتعجّب ممّن لا يقنع بما رزقه الله تعالى ، وظهر في النص أيضاً ، الجناس المضارع ، في يأمن ، ويؤمن) ، واستعاذ المحاسبي ، بصيغة الجمع ، (أعاذنا الله وإياكم من حب الشيطان) ، وفيها طلب ودعاء للآخرين . (69)

تاسعاً / الإنكار التوبيخي :

(70)

وجمع المحاسبي ، المعنيين السابقين ، مع استفهام الإنكار التوبيخي ، مستعملاً الأداة نفسها ، في تفسيره ، بقوله : ((... فكيف تعني بعد علمك بطلب ما قد فرغ من مقداره ؟ أولاً تسمع إلى قول الله عزّ وجلّ : ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (71) ، فكيف تطلب كشف الضّر من عند غير الله ، أو تطلب النفع من عند غير الله ؟ فكيف تطلب كشف الضّر وطلب النفع من عند غير الله ؟ وكيف لا يكون الغالب على قلبك طلب كشف الضّر ، وطلب النفع من عنده وحده ...؟ وكيف تخاف فوات شيء من الخير يريد الله بك ؟ وإن لم يرده بك فمن يعطيك ذلك ؟ أو ينيلك إيّاه ؟)) (72) ، نلاحظ في النص الإبداع ؛ إذ اشتمل على الطباق بين اسمين ، في الضّر ، والنفع) ، وظهر التكرار كذلك ، في (طلب كشف الضّر) (73) و(طلب النفع) ، و (من عند غير الله) ، والموازنة في ، (يعطيك ، وينيلك) ، والمجاز المرسل في لفظه بيد الله) ، واستعملت هنا بمعنى (الإرادة) وقد نقلت من معناها الأول (74) ، الذي وضعت له ، وهو (اليد الجارحة) ، لتدل على المعنى الجديد ، والعلاقة بين المعنيين (سببية) وظهر أيضاً ، اسم الاستفهام (من) ، فضلاً عن ، تكرار الأداة (كيف) ، خمس مرات ؛ لأداء معانٍ مختلفة ، فالأولى دلّت على التعجّب ، وفي الثانية والثالثة أفادت النفي والرابعة أفادت



التعجب أيضاً ، والأخيرة أدت معنى الإنكار والتوبيخ ، وهذا التكرار بالاستفهام يمثل إحدى الوسائل (75) التعبيرية المميّزة عند المحاسبي ، في إظهار العظة مؤثرة ، وتضمّن النص أيضاً ، دلالات صوفية خاصة . (76)

عاشراً / الاحتقار :

وأنكر المحاسبي بهمزة الاستفهام عدم قطع كلامه الموافقة لله عزّ وجلّ ، في تفسيره موبخاً نفسه على حقيقة كونه من نطفة ، بقوله : ((أما تتفكرين أنه مماذا خلقتك ؟ من نطفة خلقتك (77) فقدرك ، ثم السبيل يسّرك ، ثم أماتك فأقبرك ، أفتكذابينه في قوله : ، فإن لم تكوني مكذّبة ، فما لك لا تأخذين حذرک ؟)) ، جاءت لفظة (ماذا الاستفهامية ، المدغمة بحرف الجر (من) ، في معنى الاحتقار ، وأفادت (ما) الثانية معنى الحث وعدم الغفلة ، وتضمّن النص اقتباساً تاماً ، من القرآن الكريم ، مع بعض التغيير فيه ، دلالة على تعمّق المحاسبي وفهمه للقرآن الكريم . (78)

الحادي عشر / التهويل :

واستعمل المحاسبي الاستفهام ، في تصوير موقف المخالفين لأوامره ونهيه سبحانه يوم القيامة ، ممّا نقرّوه ، في تفسيره ، بقوله : ((... ، واشكروه على ما أنعم به من الأقدام بالسعي إلى الطاعات . فإن قصرتم في ذلك ، فراقبوا ألا تسعوا على الأقدام في الآثام كفعل من أرى .

فإنّ الله جلّ ثناؤه يقول : ﴿يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (79) . فكيف والأكبال في الأقدام ، والأغلال في الأعناق ؟)) ، (كيف) الاستفهامية هنا بمعنى التهويل وظهر التوازي في فقرات الكلام ، ممّا أعطى الانسجام والنعمة المؤثرة للنص فانتظام الفواصل بين الألفاظ يولّد النبرات الإيقاعية . (80)

ومنه ، نقرأ تفسيراً لآية كريمة للمحاسبي ، استعمل فيه الأداة (هل) ، و (من) الزائدة والتي تفيد توكيداً لعموم ما بعدها ، بقوله : ((... ، ونادى الله عز وجل النار وأنت مكبوب على وجهك تنادي بالويل والثبور ، فناداها : ؟ فسمعت نداءه وسمعت إجابتها له : ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾⁽⁸¹⁾؟ يقول هل من سعة وأنت في قعرها ، وهي تلهب في بدنك ، لها قصيف في جسدك ، ...))⁽⁸²⁾ ، أراد المحاسبي ، تصوير حال المذنبين وحرقتهم بالنار يوم القيامة ، وهو دعوة منه أيضاً ، إلى التفكير والاعتبار ، وما ذكر لا يليق أن يمر به المرء مرّ الكرام .⁽⁸³⁾

الثاني عشر / التشويق :

وعبر المحاسبي ، بالأداة (أين) ؛ لأداء معنى التشويق ، مما نقرؤه ، في قوله : ((... فأين أنت في عاقبة ذلك العمل الذي استقبلته ؟ وأنت تلتثمن وتشم عوارضهن : ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾⁽⁸⁴⁾ ثم أثنيت عليك وأثنت عليهن ، ...)) ، أمنية المحاسبي مختصة بالمستقبل ، في تصوير دخول الجنة والالتقاء بالخور ، دعوة منه ، للقيام بالطاعات لله سبحانه ، في تحقيق ذلك الأمر .⁽⁸⁴⁾

ومنه كذلك ، تفسيره لآية كريمة ، استعمل فيه أداة العرض (أما) ، مع اسم الاستفهام (من) ، بقوله : ((فبينما أنت معها في غاية السرور والحبور إذ أتى النداء ... من بعض ما أعد الله من أزواجك : يا ولي الله أما لنا منك دولة ؟ أما آن لك أن تنظر إلينا ؟ ... فأجبتها : ومن أنت برك الله فيك ؟ فردت الجواب إليك : أنا من اللوات⁽⁸⁵⁾ي قال الله عز وجل : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾⁽⁸⁶⁾ ، فبينما أنتما قد ملئتما فرحاً وسروراً ، إذ نادتك أخرى من قصر من قصورك :

أما لنا منك دولة ؟ أما آن لك أن تشتاق إلينا ؟ فأجبتها : ومن أنت برك الله فيك ؟ فرجعت القول : أنا من اللواتي قال الله عز وجل إليك : ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾⁽⁸⁷⁾

، فتحوّلت إليها ...)) ، خيال المحاسبي ، أتاح له بتشكيل حوار في الجنة مع الخور ، وهذا الخيال عنصر لازم في الإبداع الفني ، وأفاد تكرار جملة (أما لنا... ؟) ، و (أما آن لك ... ؟)



(، و(مَنْ أَنْتِ ... ؟) ، و (أنا من اللواتي ... ؟) ، توكيد المعنى في النفس ، ف ((تكرار
الكلمة في الجملة أو النص ، وتكرار الجملة في السِّياق ، لا بد أن يكون له من القيمة ما هو
أكبر)) (88)



الخاتمة

انتهى البحث في (الاستفهام عند الحارث المحاسبي في تفسيره للقرآن الكريم) ، ولا بد لنا من أن نشير إلى أهم النتائج التي توصل إليها البحث ، وهي :

1. همزة الاستفهام أكثر الأدوات وروداً عند المحاسبي في تفسيره للقرآن الكريم ، وأكثرها تنوعاً في الاستعمال ، فقد دخلت على الفعل الماضي ، والمضارع بصيغتهما المختلفة بهدف تحقيق أفضل توعية بها .
2. انمازت (هل) الاستفهامية ، بالاجتماع مع الأداة (غير) ، لإفادة الحصر والتخصيص
3. حقق المحاسبي بالظواهر الصوتية (التكرار ، والجناس ، والسجع ، والتوازي) ، مجموعة من الوظائف الإيقاعية ، مثل التلحين والتنغيم مما عمق المعاني .
4. تكرار الأداة (كيف) ، بمعانٍ عديدة ، وقّر للمحاسبي ، حرية أسلوبية في تجسيد معاناته وتجاربه الشعورية ، وأعطى فقرات الكلام وحدة إيقاعية رقيقة ، الهدف منها هو لفت انتباه السامعين أو القارئ .
5. استعمل المحاسبي الخيال والتصوير ، وسيلة للترغيب والترهيب ، فمن خلال هذه العملية يتم الإصلاح ، تأثراً منه بالقرآن الكريم .

إنّ هذه هي أهم النتائج التي استطاع البحث أن يصل إليها ، فإن أصبت فذاك أملّي ، وإن فاتني شيء فحسبي أجر المجتهدين .

والحمد لله أولاً وآخراً على فضله ونعمه وصلى الله على سيّدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلّم



- (1) ينظر : مقاييس اللغة ، ابن فارس ، مادة (فَهَمَ) ، 722 .
- (2) تهذيب اللغة ، أبو منصور الأزهري ، مادة (فَهَمَ) ، 6 / 335 .
- (3) م . ن ، مادة (فَهَمَ) ، مج 5 ، 39 / 3481 .
- (4) الفروق اللغوية ، أبو هلال العسكري ، 39 و 48 .
- (5) ينظر : المنجد في اللغة ، لويس معلوف ، مادة (فَهَمَ) ، 598 .
- (6) لسان العرب ، ابن منظور ، مادة (فَهَمَ) ، مج 5 ، 39 / 3481 .
- (7) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، الدكتور أحمد مطلوب ، 109 .
- (8) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني ، 131/1 ، وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ، السبكي ، 1 / 423 .
- (9) المرید : هو السالك في الطريق إلى الله تعالى ، بصدق الإرادة والإقبال الخالص لطاعته ، وهجر مطالب النفس وحفظها وشهوتها ، والمتجه بكلية ، وبكامل إرادته لله سبحانه وتعالى . ينظر : معجم ألفاظ الصوفية ، الدكتور حسن الشرقاوي ، 262 .
- (10) تنظر ترجمته في : طبقات الصوفية ، أبو عبد الرحمن السلمي ، 56 . 60 ، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، أبو نعيم الأصفهاني ، 10 / 73 . 110 ، وصفة الصفة ، ابن الجوزي ، 2 / 622 . 623 .
- (11) الأحقاف ، 20 .
- (12) الوصايا ، الحارث المحاسبي ، 101 .
- (13) المراقبة : علم العبد باطلاع الرب سبحانه وتعالى عليه واستدامته لهذا العلم مراقبة ربه . ينظر : الرسالة القشيرية ، عبد الكريم بن هوازن القشيري ، 189 .
- (14) الوصايا ، 119 و 136 .
- (15) البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ، 2 / 342 ، وينظر : معترك الأقران في إعجاز القرآن ، السيوطي ، 1 / 436 .



- (16) التنبيه : إعلام ما في ضمير المتكلم للمخاطب . ينظر : التعريفات ، الشريف الجرجاني ، 54 .
- (17) الذاريات : 22 . 23 .
- (18) ينظر : تفسير التحرير والتنوير ، ابن عاشور ، 71 / 25 .
- (19) آداب النفوس ويليهِ التوهم ، الحارث المحاسبي ، 144 .
- (20) فصّلت ، 17 .
- (21) ينظر : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ابن الاثير ، 2 / 171 .
- (22) فصّلت ، 17 .
- (23) هود ، 20 .
- (24) الأعراف ، 198 .
- (25) العقل وفهم القرآن ، 324 .
- (26) ينظر : اللّمع في التصوف ، أبو نصر السّرّاج الطوسي ، 303 .
- (27) ينظر : آداب النفوس ويليهِ التوهم ، 128 و 145 .
- (28) ينظر : مفتاح العلوم ، السّكاكي ، 418 ، ومن بلاغة النظم العربي . دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني ، الدكتور عبد العزيز عبد المعطي عرفة ، 2 / 133 .
- (29) يونس ، 61 .
- (30) بدء من أناب إلى الله ، الحارث المحاسبي ، 157 ، وينظر : آداب النفوس ويليهِ التوهم ، 124 .
- (31) البقرة ، 268 .
- (32) بدء من أناب إلى الله ، 180 ، وينظر : آداب النفوس ويليهِ التوهم ، 143 .
- (33) الموازنة : تساوي الفاصلتين في الوزن دون التقفية . ينظر : التلخيص في علوم البلاغة الخطيب القزويني ، 404 ، وينظر : عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ، 2 / 303
- (34) الطباق : هو الجمع في الكلام بين الشيء الواحد وضده . ينظر : علوم البلاغة العربية ، الدكتور مُجّد ربيع ، 161 .



- (35) ينظر : أساليب البيان ، الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس ، 363 .
- (36) ينظر : حروف المعاني والصفات ، الزجّاج ، 11 ، ورفض المباني في شرح حروف المعاني ، المالقي ، 181 .
- (37) فاطر ، 3 .
- (38) الأعراف ، 54 .
- (39) آداب النفوس وبيته التوهم ، 141 .
- (40) ينظر : في التركيب اللغوي للشعر العراقي المعاصر . دراسة لغوية في شعر السيّاب ونازك الملائكة ، مالك يوسف المطّلي ، 156 .
- (41) ينظر : م . ن ، 144 ، والوصايا ، 103 و 224 ، وبدء من أناب إلى الله ، 177 و 183 ، وحلية الأولياء ، 10 / 106 .
- (42) ينظر : حروف المعاني والصفات ، 8 .
- (43) ينظر : الخصائص ، ابن جيّ ، 2 / 438 .
- (44) التقرير : وهو حمل المخاطب على الإقرار و الاعتراف بأمر قد استقرّ عنده . ينظر : معترك الأقران في إعجاز القرآن ، 1 / 433 . 434 .
- (45) الحاقة ، 12 .
- (46) العقل وفهم القرآن ، 211 .
- (47) ينظر : شرح الرضي على الكافية ، الاسترابادي ، 4 / 447 .
- (48) أساليب البيان ، 85 .
- (49) الأعراف ، 198 .
- (50) العقل وفهم القرآن ، 217 .
- (51) تفسير التحرير والتنوير ، 16 / 165 .
- (52) ينظر : م . ن ، 30 / 13 .
- (53) ينظر : العقل وفهم القرآن ، 306 و 317 و 339 ، والوصايا ، 270 ، وحلية الأولياء ، 10 / 77 ، والرعاية لحقوق الله ، الحارث المحاسبي ، 318 .



- (54) طه ، 115 .
- (55) ظاهرة الربط في التركيب والأسلوب العربي ، (بحث) الدكتور تمام حستان ، 31 .
- (56) آل عمران ، 133 .
- (57) الرعاية لحقوق الله ، 38 .
- (58) الشورى ، 7 .
- (59) المحبة : ميلك إلى الشيء بكليتك ، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سراً وجهراً ، ثم علمك بتقصيرك في حبه ، ينظر : الرسالة القشيرية ، 324 .
- (60) حلية الأولياء ، 10 / 82 .
- (61) السجع الموازي : وهو أن تتفق اللفظة الأخيرة من القرينة مع نظيرتها في الوزن والرؤي . ينظر : خزانة الأدب وغاية الأرب ، ابن حجة الحموي ، 2 / 848 .
- (62) الحديد ، 27 .
- (63) الرعاية لحقوق الله ، 38 .
- (64) جناس الاشتقاق : وهو أن يجمع بين اللفظين الاشتقاق . ينظر : معجم المصطلحات البلاغية و تطورها ، 269 .
- (65) آل عمران ، 159 .
- (66) آداب النفوس و يليه التوهم ، 128 .
- (67) التكاثر ، 1 .
- (68) الوصايا ، 97 .
- (69) الجناس المضارع : وهو أن يجمع بين كلمتين هما متجانستان لا تفاوت بينهما إلا بحرف واحد سواء وقع أولاً أو آخراً أو وسطاً أو حشواً . ينظر : معجم المصطلحات البلاغية و تطورها ، 285 .
- (70) الإنكار التوبيخي : هو التعبير والتقريع على أمر قد وقع في الماضي ، أو على أمر يخاف المرء أن يقع في المستقبل بأن كان المخاطب بصدد أن يفعله . ينظر : من بلاغة النظم العربي - دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني ، 2 / 115 . 116 .



- (71) الأنعام ، 17 .
- (72) بدء من أناب إلى الله ، 179 ، وينظر : آداب النفوس وبلية التوهم ، 142 . 143
- (73) الإبداع : وهو أن يكون الكلام مشتملاً على عدّة أنواع من البديع . ينظر : جواهر البلاغة ، أحمد الهاشمي ، 414 .
- (74) المجاز المرسل : هو كلُّ كلمة أريد بها غير ما وُضعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول . ينظر : أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، 304 .
- (75) ينظر : النثر الصوفي . دراسة فنية تحليلية ، الدكتور فائز طه عمر ، 275 .
- (76) معاتبة النفس ، الحارث بن أسد المحاسبي ، 73 .
- (77) عبس ، 22 .
- (78) ينظر : أستاذ السائرين . الحارث بن أسد المحاسبي ، الدكتور عبد الحلیم محمود ، 135 .
- (79) النور ، 24 .
- (80) الوصايا ، 164 .
- (81) ق ، 30 .
- (82) ق ، 30 .
- (83) ينظر : علم المعاني ، 63 .
- (84) الصافات ، 61 .
- (85) الولي : هو مَنْ توالى طاعته من غير تخلل معصية . ينظر : الرسالة القشيرية ، 359
- (86) السجدة ، 17 .
- (87) ق . 35 .
- (88) ينظر : التفسير النفسي للأدب ، الدكتور عز الدين إسماعيل ، 36 .